إهداء

إلى أولئك الذين تاهت عنهم انفسهم في أوقات مبكرة ، إلى من يشتكون من شيخوخة الآمال في مقتبل العمر ، إلى الذين ظلوا طريق السكينة و اوجسوا في انفسهم خيفة من الفناء دون الحياة ، و أضرمت الحسرة في صدورهم نارا تتأجج سويدائها كلما مر بهم قطار العمر بين فواصله دون أن يهتدوا لبرد يسلمون به من شرورها ، إلى من لا يجدون "الطريق "، إليكم حال "مراد "إذ تمثل في حاله ما قد يكتنفكم حد المطابقة لا المشابهة فقط، عسى أن يكون مآله ، مآل جميع من يلقي نظره على صفحات أحواله إلى حين تلك النقطة المضيئة في آخر نفق الظلام الذي يحيطكم دون أن تعيه آذان من حولكم أو قلوب رحيمة قد تتعلقون بما قد يفيض عليكم منها شفقة و حنوا لتستنقذوا أنفسكم من هشاشة الحال و إرتباك الأحوال و إعوجاج الخطى .

- خريف في مقتبل العمر -

نظرت في عينيه, نعم إنه هو , ذاك الشاب الذي كان منطلقا, باسما, كانت الأحداث تزيد في فتيل معاندته لها حتى يخبو صداها الموحش و تنطفئ ثم لا تكاد تأخذ من بريق ابتسامته شيئا, أنظر اليه غائر العينين, تلك النظرة التي كانت تخبر بكل شيء هي اليوم مظلمة المعالم , تكاد ترى العدم متجسدا فيها على صورته التي لا تدرك .

لقد كان دائما شغوفا بالغرائب ، المألوف دائما كان زهيد المتعة لديه ، ممل إلى درجة الاختناق ، كانت تلك الاشياء التي تنبثق من طرق لم يسبق ان سلكت من قبل هي ما يجذبه و يبهر ذائقته ، كانت بمثابة التعبير عن قصور المألوف و امكانية التفرد التي يرى فيها كمال التمتع و اكتمال العقل فالعقل الناقص فقط ما يسد فراغاته بما يوجد ، لا طاقة للخلق فيه و لا شغف يذكيه حتى يمتلك وسائل فريدة و أكثر تسلية و نفعا.

تجده يقتفي ذلك الجنون -هو هكذا في عين من يرهبهم الاختلاف- على أمل ان يمسك ما يحركه و ما يزيد من ثائرته حتى تخرج منه تلك العجائب و الفرائد ، لطالما كان العقل المحاط بالقوالب الخانقة شيئا تتجاهله جوارحه كأنها صممت لذلك بالخصوص.

عجيب أمره ما الذي جرى كيف لتلك الصورة الفتية لتغزوها جميع صفات الشيخوخة المزمنة دون إنذار حتى تستوفي منه ماء الشباب و ألقه, أصبح يطيل النظر في الأشياء , يدقق في تفاصيلها الحزينة أكثر مما كان قد يفعل , يسير دون رغبة بخطى تائهة , كانت في يوم ما ثابتة على الطريق , متحققة من الوجهة.

يتردد في داخله صدى يلقي بكلماته على مشارف عينيه كأنه يخبر قائلا : " جعلت أتحاشى كل تلك الرد في تلك المواقف المؤلمة التي تحضرني حتى صدئت في داخلي حتى لا تكبل عقلي أو تتعثر خطواتي ، ثم بين ليلة و ضحاها أجدني غير قادر على السير في حياة تملئها الفوضى ، لا أدري أهي في عقلي أم خارجه فلم يحسم الأمر بعد أو لعله لا يبيت على قرار منذ بدأ الخليقة فالخيارات لا حصر لها و أما الإختيارات فيقف حاجز من المشتتات بيني و بينها فلا رفاهية اتكأ عليها سوى الصمت و ما أمره في أوقات يجب فيها البوح.

...لعل ذلك الصدأ الذي كبلتني احماله إذ تقادمت ينهرني اليوم حتى لا اخطو خطوة أخرى دون أن أنظر في تلك الحال لعلي ارممها حتى تستأنف شيئا من العيش فها أنا في مواجهة مع دفاتري القديمة التي ظننت الزمن قد يبليها فلم تبلى بل هي الجمر من تحت الرماد تنفخ فيها ريح الحوادث فتوقظ فيه لهيبا لا يطفأ إلا بالبكاء خلسة و السهاد ليلا و التيه نهارا ، فمن لتلك الروح المعذبة بماء الجنة حتى تتقي التلف بذاك السعير ".

مراد إبن الثلاثين ربيعا, أمسى في معيشته شيخا في الثمانين أو أكثر , لا يكاد يجمع بين شيئين في يومه , يبتعد عن الضوضاء قدر الإمكان , يقل الحديث بعد أن كانت أحاديثه ذات شجون و إستطالة ربما ملها من يستمع له لكنها كانت تروق له , لم يعد يكترث لما يدخل في جوفه إلا نادرا ما يهم فقط هو لقمة تسد الرمق سليمة من الأذى , ثم النوم مبكرا قدر ما يمكن فقد أرهقه السهر طويلا , لم يعد سمرا بل نارا مضطرمة تأكل عقله و تفسد مزاجه .

لا أظنه يرى نفسه منتميا لهذا العالم لكنه مضطر للعيش فيه, يبدو أن قوانينه و نواميسه تستفز قريحته و تنكأ جراحه القديمة و تحدث أخرى جديدة دون أن يعلم سبيلا للترضية قد يخرج به من ذلك

الفطام القسري الذي يجد نفسه فيه , ثم ربما تساءل حين يرى من هم في سنه كيف يستطيبون ذلك العيش المليء بالشوائب دون إنتباه , أو ربما غبطتهم لذلك حد الحسد أحيانا.

لم يكن يتخيل يوما ما أن يقف على حافة الحياة بين السقوط في بئر النسيان أو الدخول في حياة تشبه حياة الأشباح لا يدركهم بصر الناس لكنهم يعيشون يزاولون الأشياء كما يفعل دون أن يلاحظه أحد أو يتمسك به كثيرا حد الإنتباه لغيبته , لم يكن يظن أن النفس التي كان يحملها قد تقف به يوما ما هذا الموقف المؤلم بقناعة تامة , إختبار الغرغرة بوعي تام , ربما جميع من وردوا على أهوال هذا العصر بعقل ثابت يمرون بذات الإمتحان الذي يريد أن يسمع صافرة نهايته قريبا أو هكذا أراد تسمية هذا الوضع الهجين الذي ألبس ثوبه دون قناعة منه .

هذا العصر متقلب الطبائع, سريـع النسق , متقد الذاكرة لا يكاد ينسى شيئا من الجزئيات حتى تلك التي تنتبه لها الحواس دون وصف قد يستوعبها , تلك التي لا تترك مجالا للهضم النفسي أو الإستيعاب العقلي التام , هي فقط في تدافع و توال أسرع من الزمن ذاته , ثم هي

تلتصق بالنفس , تحاصر تقلباتها , تخنق توقها لمتعة الحياة حتى في أبسط الأشياء.

يذكر حين كان يقف أمام المرآة , يحدث نفسه طويلا , حديث مبهم , لا يدرك مدى عمقه إلا هو في لا وعيه ثم يحسم الأمر بالمغادرة سريعا حيث يدرك كم مضى من الوقت أمام المرآة , لم يتحقق حتى من هندامه رغم مكوثه الطويل ذاك , ربما ضحك منه الجميع حين رأوه غير متناسق مع ما يفعله , لكن ذلك التهريج لم يكن يهمه بل هو آخر إهتماماته.

يحث الخطى إلى المدرسة , إلى المسجد , إلى الجامعة , إلى السوق , إلى حيث يقصد حتى و إن لم يستدعي الأمر ذلك , لا يعلم لماذا لكن أمرا ما يدفعه دائما للإسراع حد الرهبة من شيء ما يلاحقه , هل كانت أوزارا لا يدركها إلا هو لم يكن راغبا في أن تدنس ثوبه الذي يسعى لإبقاءه ناصعا أم هل هي خوفه الشديد من المراقبة المجحفة بخصوصيته أم هي حالة غيبية لا يدرك كنهها, لكنها آخذة في الإمتداد حتى جاوزت العقد أو أكثر , على قدر رغبته في تجاوزها على قدر ما كان يريد الوقوف على ما يؤججها و ما يبقي مكوثها البغيض في صدره حد التصعد في السماء.

حتى وقفت به على حال من التردد في خوض غمار الأحداث حتى نهايتها , لم يكن يعزم على أمر حتى يقف في منتصفه , لا يعلم كيف يكمله و لا كيف ينجو من علائقه التي أحاطته , يريد أن يصل لحال من الإنسجام مع ما يريد و كيف يريده و متى و لما , تلك الأسئلة التي لا تكتمل إجاباتها أو موجباتها في آن واحدة , ذلك المشهد الناقص في الأشياء هو ما يقلقه حول طبيعة حياته التي يعيشها , أو ربما كانت إجابة ذلك السؤال هي الزفرة التي ستذهب بذلك الحمل مرة واحدة.

لكن ردة فعله في جميع تلك المزاولات التي لا يذكر تفاصيلها الا هو و لا يعلم مدى المرارة التي تجرعها حينها سواه هي المخيفة , فهو ينغلق على نفسه حد التوحد دون أن يقلقه ذلك أو يثير إنتباهه حول نوع المعاناة التي تعتريه أو يظهر على ملامحه سوى في الآونة الأخيرة شيء من آثارها , كأنه يعلن نضوب تلك الطاقة الطفولية التي كان يبتلع بها جميع السواد الذي يجاريه .

لكن .. مهلا .. ما كان ذلك السواد ؟ , ماهو ؟ , هو حتى لا يستطيع الوقوف على وصفية تحمل كلاما بشريا واضحا هي حالات من الإختناق شديدة كلما مرت صورة من الصور المنقوصة التي أراد لها

أن تحوي بهجته فلم يبلغ فيها ذلك المراد , مجرد صورة لا تحمل كلمات و لا أصواتا و لا حتى حياة هي مجرة جماد يثير شيئا في داخله يتلاعب بتلك السكينة التي يؤوب إليها بعد صراع مع الترقب لماهو أسوأ مما قد حدث و يحدث فيما تمناه أو رغبه ثم مني بالفشل في حصوله أو هو يقف على قارعته , تسارع نبضاته كأنها تنذر بذهاب الهواء من الكون كأنها صافرة النهاية في كل مرة.

مراد , ذلك الإسم الذي يسخر منه أكثر ما يميزه , يدفعه لجلد نفسه ربما بسياط أحد من تلك التي تلقي بشررها عليه , ثم أي مراد ناله , و أي مراد سيناله سوى ما لا يريده ربما , ذلك الإسم الذي يحتال عليه أكثر مما يحتال له , تلك الخلاصة التي تنتهي إليها ثورته التي تنشب شرارتها حين يضطجع في زاويته وحيدا يريد جمع شتاته الذي يزيد حدة بين البشر ذوي الملامح المبهمة التي تشعره بالعجز الفطري في التواءم مع انفعالاتهم و التفاعل مع ما يصدر منهم.

فما بالك حين يستدير الزمان دورته نحو هذه الثورة الإتصالية متأججة التحور و التغول في تلك الطبائع معلنة استحالة التوافق بينه و بين الحظ في إيجاد من تصلح رفقته و تطيب مخاطبته سوى

ذلك النزر القليل ممن يبقون فيه رغبة في البقاء في هذا العالم على الأقل.

لكن طاقة الشباب التي تفرضها عليه سنه تحضه لمزيد التأرجح بين الرغبة في فناءه كلما أراد أن يحسم حال الإضطراب تلك و بين محاولة الإنصهار في نسق الحياة التي لا يتقاسم شيئا من تقاسيمها مع طابعه الذي أورثه أو إنتهى إليه فإن أفلته فقد أفلت نفسه و إن أبقى عليه غادرت هي من الجانب الآخر متمنعة عن البقاء فالحوادث لا تنتهي و الشراهة للعيش غريزة لا يملك شأن إطفائها أو تشغيلها متى ما أراد, كأنه في فصل خريف لا ينتهي يذهب بأوراقه حتى يبقي له جذعا عاريا يمتلئ حياة دون رداء قد ينبئ بوجودها على الحقيقة.

كان يطيل الإختفاء ثم لا يظهر إلا بين الفينة و الأخرى لقضاء شأن مهم لكني رأيت فيه هذه المرة إقبالا متأنيا على حوائجه و شيئا من هدوء الملامح التي طالما جمعت بين البشاشة المفرطة و بين الوجوم القاتم , تلك الحال الوسيطة تنبئ بحكمة قد ألقت بظلالها على ضدين قد فرضا هدنة أخيرا بينهما عقله المستعر و قلبه المغمور بالعواطف المتباينة .

... أتعلم ما خلص إليه بعد تلك التذبذبات التي تآكلت بين أسنانها الحادة فتوته تلك حتى يستحيل شيخا ملما بالدهر سابرا لأغواره دونما طول تجربة أو استطالة بالزمن حد التحدب , أن يغتني بما يمكث في نفسه من الرغبة حتى يمضي في أقداره التي يوضع على سككها بوعيه أو ربما دونه فللكون نواميسه التي تجري على أقوياء النفوس و ضعافها مثله و يسكن لما في نفسه من الرضا و أن يتصل بالسماء قدر ما يستطيع ففيها من لا يعجزه أمر البشر قريبهم و بعيدهم , صدوقهم و ماكرهم , راغبهم في وصاله و موليهم عنه , تلك الصلة كفيلة بسد ذلك الجوع للأمان و الحماية و الدعم و النقص الذي لا يدرك وصفه حتى لمن حملته.

أما عن ذلك الخريف الذي يبارزه بالخسارات واحدة تلو الأخرى و يذهب بأوراقه النضرة فهو الذي يعده لبراعمه التي ستنمو أبلغ جمالا و أشهى للنظر و الإرتواء حد الشبع بل ربما إجتازت به شتاءا طويلا حتى يقف على حلتها القشيبة تلك و قد يأسر بها القلوب و يذهب بها بالألباب و يقهر بها وهن الخريف و صفير رياحه المزعج, ذلك القصاص الذي سيعدل سنوات القيض التي مرت به و لا بد كدورة الفصول تكون دورة العمر.